الأغنيـــاء ...

للأستاذ محمود محمد شاكر

كانت ليلة السبت السالفة من الأسبوع الماضى ، فوقع فى دنياىَ أمرٌ مُفظعٌ مُفزِعٌ كنتُ معه كمن عَمِى دهراً من عمره ثم أبصر . فأخذتنى الحيرة أخذاً شديداً ، وتضرَّبتْ نفسى كما يتضرَّبُ الماء فى مرَجله على معركمٍ من النار تشتعلُ من تحته وتستعر ، وتقاذفنى الهموم كما يتقاذفُ تيَّارُ البحر الأعظم موجةً هائجة من موجِهِ ، وتنزَّى قلبى بين ضلوعى كما تتنزَّى الكرَةُ مقذوفة من علُ ، وهاجَ هَيجى واضطربَ أمرِى وتعوَّلتنى الأفكارُ الخائفة الحزينة المجرَّحة التى تدْمَى أبداً ، فلا تحسمُ الدَّم ، وانقلبتُ بهمّى أدورُ فى نفسى دَوْرة المجنون فى دنيا عقله المريض المشمَّت . وهكذا قَضَيتُ ليلَ أيامى ، وليس لمثل هذه الأيامِ نهارٌ

ودعوتُ ربى جاهداً ، وكنت من قبل أدعوهُ ، إنه هو البرُّ الرحيم ... ، وكنتُ أرى الدنيا كلها وكأنما ارتدتْ لعينىَّ غِلالةً من سرابٍ تخفِقُ عليها وتميدُ وتتربَّعُ ، وإذا الأرضُ غيرُ الأرضِ والناس غيرُ الناسِ ، وإذا كل شىء يجىء ويذهبُ ، ويبينُ ويَخفى ... ، وفقدتْ الأشياءُ معانيها فى نفسى ، فما أرى إلا بؤساً وخَصاصة وجوعاً وعُرْياً ، وإذا كلُّ شىء بائسٌ فقيرٌ جائعٌ عارٍ لا يستره شىء ... اللهم إنى فوضتُ أمرى إليك وألجأتُ ظهرى إليك ... ومضيتُ أنسابُ فى أيامىَ البائسة ، حتى إذا كان الليلُ فى أوَّلِهِ مُذ أمس ، أويتُ إلى بيت كتبى آخذُ كتاباً لا ألبثُ ألقيه كأنَّ بينى وبينه عداوةٌ أو حقدٌ قديمٌ . فضِقتُ ثم ضقتُ وخَنقنى خانقُ الضَّجر واليأسِ ، وغاظنى ما غلبنى على عقلى وإرادتى ، فأهويتُ بيدى إلى كتاب عزمتُ ألا أدعه ، وإذا هو : « إغاثة الأمة ، بكشف الغُمَّة ، للمقريزى » . وفتحتهُ وانطلقتُ أقرأ ، فما أجوز منه حرفاً أولَ إلا وجدتُ الألفاظَ تتهاوى فى نفسى وفى عقلى ، وكأنها تُقذفُ فيهما من حالقٍ ، حتى لوجدتُنى أسمع لها فيهما صلصلةً ودويًّا وهدًّا شديداً شديداً ، كأن فى نفسى وعقلى أبنية تنقضُّ وتتهدمُ فى كفِّ زلزلة

وإذا بحر يموجُ لعينىَّ أسمعُ هديرَه وزئيره وزمجرة أمواجه فى الريح العاتية ، وإذا هو أحمرُ كالدَّم يَفُورُ ويتوثَّبُ ، وإذا صرخةٌ تخفت زمجرة الأمواج ، وإذا هو هاتف يهتف بى : « قم إلى صلاتك ، فقد أظلك الفجر ! ! » . فانتبهت فزعاً وإذا أنا أقلب الصفحة التاسعة والعشرين من هذا الكتاب ، وإذا خطوط حمر قد ضربتها فوق هذه الأسطر : « ودخل فصل الربيع فهب هواء أعقبه وباء وفناء ، وعدم القوت حتى أكل الناس صغار بنى آدم من الجوع ، فكان الأب يأكل ولده مشوياً ومطبوخاً ، والمرأة تأكل ولدها ... فكان يوجد بين ثياب الرجل والمرأة كتف صغير أو فخذه أو شىء من لحمه . ويدخل بعضهم إلى جاره فيجد القدر على النار فينتظرها حتى تنهيأ ، فإذا هى لحم طفل . وأكثر ما يوجد ذلك فى أكابر البيوت[1] »

(١) كتاب « إغاثة الأمة بكشف الغمة » هو تاريخ المجاعات التى كانت بمصر ، وقد طبع بلجنة التاليف والترجمة والنشر منذ أسابيع . وهذا الذى تلناه من تاريخ المجاعة التى كانت بمصر فى الدولة الأيوبية سنة ٩٦٠ فقيل فيها : « سنة سبع افترست أسباب الحياة »

ثم سألت ربيعاً عن نبات تنبسط فروعه على الأرض فقال : سفيرا . فأعدت السؤال ، فقال : سفيرا عزيزة . فعجبت أن تكون السفيرا عزيزة اسم نبت فى الصحراء ، ثم سألت أعرابياً من بعد فقال نعم يسمى بهذا الاسم — ولم أعرف كيف سمى به — وبعد مسيرة نصف ساعة توقفنا للغداء ، عند جبل يسمى جبل الزمرد ولكنا لم نهتد إلى الزمرد فيه ، ويقال إن به حجارة زرقاء وإن الزمرد يكون فى حجارته

وقد حدثت أعرابياً هناك ، وسألته عن نبات ضعيف له زهر بنفسجى فقال هو السَّهَك ينبت بعد المطر

ثم سألته عن نبات له ثمر مستدير ذو شوك . فقال : السعدان قلت : أهذا هو السعدان الذى ملأ صيته كتب الأدب ، والذى ضرب المثل بجودته فقيل : مرعى ولا كالسعدان ، ويضرب المثل بشوكه : حسك السعدان ، ولكن السعدانة التى رأيتها كانت خضراء لم يعتد شوكها ويبس

وأبلغنا السير أبا زنيمة عشياً ، وأصبحنا إلى السويس فالقاهرة فألقت عصاها واستقرت بها النوى

كما قر عيناً بالإياب المسافر

عبد الوهاب عزام

أين يعيش أحدُنا وهو يقرأ ؟ هذه تسع ساعات يخيَّل إليّ أني قضيت ثماني ساعات منها وأنا أقرأ هذه الأسطر القليلة أُقلِّبها لعيني فتتقلَّب معانيها في نفسي ، إذ كانت تنزع في معناها إلى الآلام المتفجرة بدمي في قلبي ، فلا يكون الحرفُ منها إلا أفكاراً تتَّسع وتتراحب وتتداعى وتتوالد ويَنسَخ بعضها بعضاً . ولو ذهبتُ أكتب ماقرأته في نفسي من هذه الأسطر ، وماتحدثت به النفس من حديث أكَل ثماني ساعات من أول الليل إلى مطلع الفجر ، لملأ ذلك ما يقع في كتاب مفرد ، ولكن ...

لماذا لا تكون هذه القسوة المتوحشة إلا من أعمال القلوب المتحجرة في بيوت الأغنياء والأكابر ؟ ولماذا يكون أقسى القسوة في قلب المرأة الغنية ، فتكون هي أعظم استهانة بجريمة أكْل ولدِها الذي ولدته ؟ ولماذا يكون الفقير والفقيرة دائماً هما مِثالُ الرحمة والحب والعطف والحنان ؟ أليس الناس جميعاً — غنيُّهم وفقيرُهم — سواء في هذه الحياة ؟ بَلَى ، ولكن ...

ألاَ إن هذا المال نعمة من نعم الله التي استخلف الإنسان عليها في الأرض ، وفي هذه الحياة الدنيا ؛ ألا وإن المالَ عِصامُ هذا الكون المتلئ بأسراره العجيبة التي لا يُقضى من أعاجيبها عجب ، ألاَ وإنه لَلنِّظام الطبيعي الذي يجعل من قانونه سر الحياة الإنسانية التي لا تسمو إلا بالمنافسة والرغبة فيها والإصرار عليها ، ألا وإنه لأعجب شيء في الحياة ، إذ يكون هو كل شيء ، ثم هو ليس بشيء على الحقيقة ، وإذ يكون في وَهْم الفقير القلق سِرّ السعادة ؛ ثم يكون عند الغني المسترخي فلا يعرف به ظاهر السعادة . ألا إنه العجب والفتنة ، إذ يكون سر الحياة الإنسانية المدنية على الأرض ، ومع ذلك فهو إذا ملأ الغنيَّ أفرغه من إنسانيته ، وإذا فرَغَ الفقير منه امتلأ إنسانية ورحمة وحناناً ، ثم يكون بينهما أشياء في هذا وفي ذاك تختلط وتضطرب ويرمي بعضها في بعض حتى يصبح كل شيء فساداً لا صلاح له

« أكثر ما يوجد ذلك في أكابر البيوت ! » و « أكثر ما يفعل ذلك النساء ! » إنه ليس عجيباً ولكنه مؤلم ، إنه ليس بعيداً ولكنه مفزع ، إنه هو الحقيقة الدائرة مع معاني الثراء والغنى والترف والرفاهية ، ولكنها الحقيقة الضارية المتوحشة التي انطلقت من قيودها حين أزَمَّها الحاجة والقحط والجوع ونداء المدة التي تتلوّى أمعاؤها كما تتلوى الحية الجائعة على شهواتها المتجسدة في فريستها . ليس هذا هو كل شيء ، وليس القحط وحده هو الذي يُضَرِّي عبيد المال فيأكلون بنيهم وبناتهم أكل الوحش الطاغي بطغيان حيوانيته التي تريد البقاء لنفسها ، ثم لا تعرف غير نفسها ، ولا تعبد إلا نفسها . إن كل أزمة تطلق في أعصاب الأغنياء — إلا من رحم ربك — وحشاً آكلا طاغياً مستأثراً لا يرى إلا نفسه ولا يريد البقاء إلا لنفسه . فإذا وقع القحط بين صديقين أحدهما غني كان صديقه طعاماً تفترسه الصداقة الغنية ! وإذا وقع القحط بين حبيبين أحدهما ثريٌّ مُترف تثاءب عنه يريد النوم لأنه شبع من حبه حتى تملَّأ ! وإذا وقع القحط بين أخوين أحدهما غني ، كان حق الرحم عليه أن يشرب ما بقي من دم أخيه يستولغ فيه حتى يَروَى !

إن الترف والنعمة والكفاية ، وأحلام الغنى وكنوز الثراء ، إن هي إلا الملحقات الآكلات التي تمحق العواطف الإنسانية النبيلة حين لا ملجأ إلا إلى الخشونة والشدة والصبر وحقيقة الفقر. إن الفقراء هم أكثر الناس رغبة في النسل على ضيق رزقهم ، والأغنياء أقل الناس إقبالاً عليه على ما يجدون من السعة . الفقراء أشد حزناً على من فقدوا من أبنائهم وأحبابهم ، ولكن أولئك لا يحزنون إلا ريث يشعرون الناس أنهم حزنوا ، ولئلا يقول الناس إنهم لم يحزنوا على أحبابهم ... الأغنياء ، الأغنياء ... نعم هم زينة الحياة الدنيا ، ولكن مع الزينة الخداع ، ومع الخداع الضعف ، ومع الضعف القسوة حين تجد ما يثلج لها أو يتساهل أو يستكين ... أو يثق

فمن صادق غنياً فليحذر ، ومن آخى ثرياً فليتحصن ، ومن عامله فليرهب ، فإذا بلغ المرأة الغنية فأحبها تخيلت له أنها أحبته فوثق بها فقد هلك ، وإنما هو ملهاة من ملاهي الترف إذا فقدت لذة اللهو به نبذته لما به

محمود محمد شاكر

أطلب مؤلفات
الأستاذ المشاشيبي
وكتابه
الإسلام الصحيح
من مكتبة الرسالة ، شارع الفلكي لباب اللوق
ومن المكتبات العربية المشهورة